التلقي النقدي الروسي للأدب الجزائري

بقلم : عبد العزيز بوباكير

قبل ظهور الدراسات والبحوث الروسية الأولى عن الأدب الجزائري كانت الابداعات الثقافية والفكرية الجزائرية معروفة نسبياً في روسيا وفي بعض الجمهوريات الأخرى للاتحاد السوفياتي السابق . وكانت أعمال محمد ديب ومولود معمري وكاتب ياسين في متناول القارئ الروسي بفضل حركة الترجمة وحتى أسماء بعض الكتاب المعبرين باللغة العربية ، أمثال حنفي بن عيسى والطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة وأبو القاسم سعد الله ، كانت متناولة في الصحافة . كما ساهم كتاب «ثقافة الجزائر المعاصرة» (1961)[1] في التعريف بثقافة الجزائر وشخصياتها الأدبية والفكرية . وهكذا مهدت حركة الترجمة والصحافة لظهور اهتمام النقاد الروس بالأدب الجزائري واتخذ هذا الاهتمام في بادئ الأمر اتجاه تناول الأدب الجزائري المعبر في البداية باللغة الفرنسية وحده . ويرجع سبب ذلك الى كون المؤلفات الأدبية الجزائرية البارزة وضعت في البداية باللغة الفرنسية والى تأخر ظهور الرواية بالعربية في الجزائر الى السبعينيات .

ويعتبر الباحث والناقد فيكتور بالاشوف أول من التفت في روسيا الى الأدب الجزائري وأول من وجه أنظار كوكبة من الباحثين والطلبة نحو هذا الأدب . فقد كتب عدة مقالات عن أعمال الكتاب الجزائريين مثل مالك حداد ومولود فرعون . وبفضله دخل الأدب الجزائري «الموسوعة الأدبية

(1) أنظر : ثقافة الجزائر المعاصرة . موسكو 1961 .

الموجزة» (1962)[2] . وكان لنشر مقالته «الأدب الجزائري» في هذه الموسوعة مغزى كبير بالنسبة لأدب فتي كالأدب الذي كان يخطو خطواته الأولى بعد نيل الاستقلال الوطني .

وبالإضافة الى ذلك كان فيكتور بالاشوف يلقي في كلية الآداب بجامعة موسكو محاضرات عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية . وتقيم غالينا جوغاشفيلي اسهام بالاشوف في دراسة الأدب الجزائري بقولها عن مقدمته لرواية «نجل الفقير» لمولود فرعون : «إن مقدمة فكتور بالاشوف يمكن أن تكون مثلاً يوضح كيف يستطيع ناقد حين يحلل بعض أعمال كاتب من الكتاب أن يقدم تشخيصاً لابداعه في مجمله»[3] .

في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات بدأت تنشر البحوث الأولى حول تطور الأدب الجزائري واتجاهاته الايديولوجية وخصائصه الجمالية - الفنية . ويلاحظ أن الأدب الجزائري درس خلال هذه الفترة كأدب مستقل قائم بذاته أو ضمن بحوث متعلقة بتطور الأدب في منطقة المغرب العربي ، وفي بعض الأحيان كجزء من السيرورة الأدبية في القارة الإفريقية .

وقد اشتهرت في مجال التأسيس للدراسة الشاملة للأدب الجزائري في روسيا ثلاثة أسماء هي : ايرينا نيكيفوروفا وسفيطلانا براجوغينا وغالينا جوغاشفيلي . ارينا نيكيفوروفا هي عالمة مختصة في الآداب الافريقية وتشرف في معهد غوركي للأدب العالمي على توجيه الأبحاث في الأدب المقارن الخاص بالقارة الافريقية . وقد وضعت عدة دراسات خاصة بالأدب الجزائري والمغاربي والإفريقي نذكر منها :

«الرواية الجزائرية المعاصرة» (موسكو 1967) ، وكتيب «أدب النهضة

(2) أنظر : الموسوعة الأدبية الموجزة (مقال الأدب الجزائري) . موسكو 1962 .

(3) OEUVRES ET CRITIQUES, IV/2/1980 Critiques Sovietiques sur les Litteratures Francophones du Magrhreb.

الوطنية» (موسكو 1968) وهو يتناول إبداع الكتاب المعاصرين في المغرب وتونس والجزائر ، وكتاب «الرواية الافريقية» (1977) الذي أفردت فيه فصلاً مطولاً لسبل تطور الرواية في افريقيا الشمالية .

إن إسهام إيرينا نيكيفوروفا النقدي هام جداً وأساسي لفهم تشكل نوع الرواية في بلدان المغرب ودراسة خصائصه . فقد درست هذه الباحثة المقدمات التاريخية والاجتماعية والثقافية والنفسية لظهور الرواية في هذه المنطقة ، وأولت اهتماماً خاصاً لإرتباط المصير الفردي بمصائر المجتمع .

تربط نيكيفوروفا ظهور فن الرواية في الجزائر بتصاعد الوعي الوطني في الأربعينيات والستينيات وتربطه أيضاً بظاهرة في التاريخ الأدب في البلد ، وتحديداً بنشاط كتاب المقالات المعبرين باللغة الفرنسية[4] وخاصة مولود فرعون . وتعتبر نيكيفوروفا أن الأعمال الأدبية الجزائرية الأولى اهتمت أصلاً بتصوير ظروف الحياة ونمط المعيشة والعادات والتقاليد ، وهو ما طمس شخصية البطل فيها . وتلاحظ نيكيفوروفا داخل الكتابة عن العادات منهجين :

الأول : هو المنهج الواقعي القريب من المدرسة الطبيعية ، ويمثله أفضل تمثيل مولود فرعون في عملية «نجل الفقير» و«أيام القبائل» .

والثاني : هو المنهج الرومنسي الذي ينظر الى العلاقات التقليدية نظرة مثالية والمتمثل خاصة في «رواية الربوة المنسية» لمولود معمري ، ورواية «حبة في الرحى» لمالك عواري . وبهاتين الروايتين تنتهي في رأي نيكيفوروفا ، مرحلة الكتابة عن العادات .

وفي تحليلها للرواية الجزائرية المعبرة باللغة الفرنسية أثناء الثورة وبعدها تلاحظ نيكيفوروفا التغيير الجذري الذي حدث في إشكالية هذه الرواية وفي

(4) نيكيفوروفا إيرينا ، الرواية الإفريقية . موسكو 1977 ، ص186 .

أدواتها الفنية . وتشير في الوقت نفسه الى الأسماء البارزة في هذه الفترة ، محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد ، عبروا عن عصرهم وموقفهم منه بطرق مختلفة .

وتسجل الباحثة إنتقال محمد ديب إبتداء من رواية «من ذا الذي يذكر البحر» الى رؤية جديدة للعالم وطريقة جديدة في الكتابة . وتقول أنه أصبح ينطلق من مواقف وجودية و«يشهدعلى ذلك بقوة مقنعة ، بطله الجديد الذي هو في جوهره وعاء فارغ يعربد فيه باستمرار رعب قاتم وخلية بسيطة تسجل كابوس وعداوة العالم المبهم ...»[5] .

وتعتبر إيرنيا نيكيفوروفا إبداع مالك حداد «طفرة في الرواية الواقعية الجزائرية» فأعماله تنقل واقعاً جديداً تماماً مقارنة بمن سبقه من كتاب . وهي مكرسة للعالم الداخلي للبطل ، المثقف ، وموضوعها هو الحياة الروحية لشخصية «تنطوي على قدرة فائقة» على معارضة هجوم القوى الهدامة والمعادية للإنسان» .

وتشبه إيرينا نيكيفوروفا كاتب ياسين بالجناح «الخافق» للأدب الجزائري ، وهي اذ تشير الى كون الفصول الأولى من رواية «نجمة» مثال لتجسيد مبادئ التصوير الواقعي ، إلا أنها تؤكد في الوقت ذاته أن السرد في بقية فصول الرواية قريب من تقاليد الكتابة الرومنسية المبالغة في «تفرد الشخصيات» مونولوجات داخلية حول المواضيع نفسها ، البنية «الدائرية» ، سير الأحداث بالعودة الى المشاهد نفسها .

لم تتطرق نيكيفوروفا في أبحاثها الى الأدب الجزائري باللغة العربية ، إلا أنها أشارت في كتابها «الرواية الافريقية» الصادر سنة 1977 الى أن الرواية العربية في الجزائر لم ترق الى مستوى الرواية المصرية أو التونسية ، وأنها بدأت

(5) المرجع نفسه ، ص196 .

تكتسب ملامحها . واعتبرت رواية «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة رواية «تنويرية» وهي تشهد في رأي الباحثة على وجود نوع آخر مختلف تصنيفاً للرواية الجزائرية مما يدل على خصوصية تعدد أصناف الوعي الاجتماعي في بلدان شمال إفريقيا .

الإسم الثاني البارز من النقاد الروس الذين اهتموا بدراسة الأدب الجزائري هو سفيطلانا براجوغينا . فقد اختصت هذه الباحثة بدراسة المواقف الايديولوجية للكتاب وبقضايا تصنيف الأدب في الجزائر وفي المغرب العربي بوجه عام . ولها في هذا المجال عدة تآليف منها : «أدب بلدان المغرب المعبر بالفرنسية» (1973) «وبلدان المغرب : الكتاب المعبرون بالفرنسية في الستينيات والسبعينيات» (1980) «وتخوم عصرين – تخوم ثقافتين» (1984) .

لقد اهتمت هذه الباحثة بإجلاء مواقف الكتاب وعقائدهم الجمالية . وحللت في الأجزاء الخاصة بالأدب الجزائري مؤلفات رشيد بوجدرة ونبيل فارس مبرزة الخصوصيات المميزة لتطور الأدب وكاشفة عن اشتراكه من الناحية التصنيفية بالسيرورة العامة لتطور الأدب العالمي . ولا يفوتنا هنا التنويه بأهمية كتابها الثالث : «تخوم عصرين – تخوم ثقافتين» الذي صدر عام 1984 . فهذا الكتاب يحمل طابعاً تعميمياً ويمثل عصارة اهتمام الباحثة بتطور الأدب المعبر بالفرنسية في منطقة المغرب العربي . وهو يحمل نظرة جديدة مستندة الى معلومات استعملت لأول مرة في نظرية الأدب في روسيا لابراز خصوصية تصنيف الأدب في منطقة متجانسة تاريخياً وحضارياً . هي منطقة المغرب العربي . وأولت الباحثة اهتماماً خاصاً لمراحل تشكل الثقافة الوطنية في أحشاء المجتمع الاستعماري . وفي مرحلة الكفاح المناهض للإستعمار . وتطور السيرورة الأدبية بعد نيل الاستقلال . كما درست سفيطلانا براجوغنيا في هذا الكتاب مغزى توجه الأدباء في الجزائر وتونس والمغرب الى نموذج السيرة الذاتية في الرواية وارتباط بحوثهم الفنية بتطور الوعي الوطني وبالتحولات الاجتماعية .

وأفردت قسماً هاماً في كتابها لبحث مفهوم الهوية في ابداع الكتاب المغاربة وطرق حلهم «لصدام» الشرق والغرب و«لقاء» الحضارات .

وعلى أساس التحليل المقارن لمؤلفات فرعون ومعمري وديب وحداد وكاتب وبوجدرة وفارس وطاوس (الجزائر) وصفروي وشرايبي وخير الدين وبن جلون وخطيبي (المغرب) تميمي وتليلي (تونس) تصل الباحثة الى النتائج التالية[6] :

- استقرار العلاقات التصنيفية رغم تنوع الأشكال بسبب استعمال لغة واحدة (الفرنسية) وتشابه ايديولوجية الكتاب .
- مقارنة الظواهر الجمالية المشتركة تدل على تشابه تطور نوع رواية السيرة الذاتية في النثر المغاربي .
- تميز تطور المنهج الأدبي بنوع من «التركيبية» نتيجة لاستيعاب التيارات والاتجاهات المختلفة في الأدب العالمي .
- اخضاع عناصر الفولكلور الوطني الى مبادئ الأدلجة .

وخلافاً لبعض النقاد الغربيين لا تنظر سفيطلانا براجوغينا الى الأدب الجزائري المعبر باللغة الفرنسية «كفرع» أو «تنويعة» للأدب الفرنسي ، لكنها تعتبره حلقة هامة في النقل المتواصل للقيم الثقافية والروحية للبلد . فقد كان هذا الأدب ظاهرة «أهلية» في العهد الاستعماري ميزت الانتقال الى مرحلة الاستقلال ، ورغم استعماله للغة الفرنسية فهو يستند الى تقليد فني مزدوج (وطني وغربي) ساعده على التبلور كظاهرة أصيلة متميزة في الأدب العربي .

لم يشكل الأدب الجزائري المعبر بالعربية اهتماماً خاصاً عند سفيطلانا براجوغينا . إلا أن هذا لم يمنعها من الإشارة في بعض مقالاتها الى أن سيرورة تطور الأدب الجزائري المعبر بالعربية تدعمت في مسار حرب التحرير بتحول

(6) أنظر : براجوغينا سفيطلانا ، تخوم عصرين – تخوم ثقافتين . موسكو 1981 ، ص285 – 287 .

الأعمال الأدبية من أنواع قصيرة ذات نبرة دينية أو تنويرية أو رومنسية الى المواضيع الواقعية ...

ولاحظت الباحثة الى جانب البطل الثوري - الرومنسي المكافح في سبيل استقلال الوطن ظهور البطل الواقعي في الأقصوصات والقصص الأولى «المتميزة بدرجة عالية من التوثيق ..» وقيمت سفيطلانا براجوغينا مؤلفات الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة والجيل الذي جاء بعدهما (بقطاش ، غموقات ، خلاص) ، بقولها : «انها تتميز بهاجس اجتماعي وسياسي عال وتدرس الواقع بعمق ...»[7] .

وتجدر الإشارة الى إسهام غالينا جوغاشفيلي الرفيع في دراسة ونقد الأدب الجزائري المعاصر وهي باحثة من أصل جيورجي وضعت باللغة الروسية أربع دراسات : «السحري والواقع في الرواية الجزائرية المعاصرة» (1975) ، و«الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي» (1976) ، و«أصول الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي» (1980) ، و«أدب الجزائر» (1980) .

وقد اهتمت غالينا جوغاشفيلي أكثر من غيرها بجمالية الرواية الجزائرية وبمشكلة الأصالة الوطنية في أعمال الروائيين الجزائريين . وهي تقسم في كتابها «الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي» الى ثلاث مراحل «قبل الحرب ، أثناء الحرب ، وبعد الحرب» ، وتخلص الباحثة الى أن كل مرحلة من هذه المراحل ميزت الأدب الجزائري سواء من حيث الشكل أم المضمون .

وتمتد المرحلة الأولى : في رأيها من سنة 1950 ، وهي سنة صدور رواية «نجل الفقير» لمولود فرعون ، الى غاية 1954 ، واعتبرت الباحثة هذه المرحلة فترة المحاولات الأولى لإدراك وتقييم ما يحدث . أما المرحلة الثانية فتبدأ من سنة اندلاع الثورة الى غاية الاستقلال الوطني ، وتميزت في رأي الناقدة ،

(7) براجوغينا ، النثر الجزائري المعاصر . موسكو 1987 ، ص7 .

بالجرأة في أشكال ومضامين الأعمال الروائية . أما ما بعد الاستقلال فقد شهدت ظهور مؤلفات أدبية تطرح بانوراما واسعة للواقع الوطني[8] .

لم يقصر المستشرقون الروس جهودهم على دراسة النثر الجزائري بل التفتوا أيضاً الى الشعر وركز الباحثون في هذا المجال على ابداع الشعراء الجزائريين المعبرين بالفرنسية . ولم تظهر دراسات روسية خاصة بالشعر الجزائري المعبر بالعربية إلا في وقت متأخر في بحوث الكسندر كودلين ، بالرغم من أن هذا الشعر كان معروفاً في روسيا قبل استقلال الجزائر .

تعتبر سفيطلانا براجوغينا أن تصور العالم المميز لأغلب الشعراء الجزائريين الفرونكوفونيين ولدته ثورة التحرير الوطني «وهذا التصور» فرض أشكالاً شعرية جعلت من الشعر الفرنكوفوني الجزائري شعراً مكافحاً وليس تأملياً «... وأضفى عليه هاجسه المتفائل ... ونزعته الإنسانية النشيطة» . أما غالينا جوغاشفيلي فتشبه الشعر الجزائري من 1945 الى 1962 «بلوحة تنصب فيها في كل منسجم أصباغ كئيبة ومرة من الألم وألوان من الأمل الساطع» . وترى هذه الناقدة أن السمة الرئيسية لهذا الشعر هي «رد فعله الصحيح والدقيق على الأحداث الراهنة ، وخلقه لأشكال شعرية قريبة من التقليد الشعبي»[9] .

هذا التقليد الشعبي خصص له فلاديمير سكوروباغوتوف كتاباً مستقلاً صدر 1987 بعنوان «الشعر الشعبي الجزائري - الملحون» .

وتصدى هذا الباحث بالدراسة والنقد للفكلور الشعبي في شكل الشعر الملحون . وتناول دور الشعر الشعبي في الحياة الاجتماعية ، وقضايا الدراسة التصنيفية لهذا الشعر وخصائصه الفنية . كما تحدث عن أبرز ممثلي الملحون مثل : الأخضر بن خلوف ، وعبد العزيز المغراوي ، وسعيد المنداسي ، وابن

(8) جوغاشفيلي غ ، الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي . موسكو 1980 .
(9) جوغاشفيلي ، ... Critiques Sovietiques sur les Litteratures مرجع سابق ، ص24 .

المسيب ، وأحمد بن تركي ، وبومدين بن سهلة ، ومصطفى بن براهيم ، ومحمد بلخير ، وعبد الله بن كريو ، وغيرهم .

خلاصة القول أنه يمكن إجمال آراء النقاد الروس في الأدب الجزائري فيما يلي :

- عدم التفريق بين الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والأدب المعبر بالعربية ، واعتبارهما فرعين من ظاهرة واحدة رغم اختلاف اللغة والوسائل الفنية .

- اعتبار الأدب الجزائري بفرعيه (العربي والفرنكوفوني) إسهاماً رفيعاً في كفاح الشعب الجزائري من أجل الإستقلال وبناء مجتمع جديد .

- مفهوم الأدب الجزائري لا يضم أعمال الكتاب ذوي الأصل الفرنسي أو أدب «المتجزئرين» (كامو ، بلغيري ، روا ، أوزديزيو ، روبلس ، وآخرون ..) رغم أن هؤلاء اعتبروا الجزائر موطناً لهم وموضوع الهامهم .

- ان المظاهر «الخارجية» للأدب الجزائري المعبر بالفرنسية وتشابهه الشكلي مع الأدب الغربي لا ينزع عنه مسألة تعبيره عن القضايا الوطنية وأدائه للمهمة التاريخية المتمثلة في تحوله الى صوت الشعب الجزائري أثناء نضاله المناهض للإستعمار .

- وجود فرعين لأدب واحد (بالعربية والفرنسية) يدل على وجود أصناف مختلفة للوعي الاجتماعي .

ما زالت البحوث الروسية في الأدب الجزائري مستمرة الى يومنا هذا . وقد اتخذت في الآونة الأخيرة طابع التخصص والتعمق أكثر في مسائل جوهرية في سيرورة تطور هذا الأدب مثل : التناسب بين التقليد والتجديد ، والتأريخ لهذا الأدب ، ودراسته من الناحية التصنيفية ، ومقارنته بآداب أخرى (الآداب المغاربية والافريقية) وتحليله كأدب موجه وأدب موجه للجماهير .

عبد العزيز بوباكير
أستاذ بمعهد الإعلام والإتصال